

التجربة الوجدانية في الشعر الجزائري

قصائد من ديوان الزمن الأخضر لأبي القاسم سعد الله - نموذجاً -

*Emotional experience in Algerian poetry poems from the Green Time Diwan
by Abu Qasim Saadallah*

باقي إيمان / طالبة دكتوراه
الدكتور: قوني زينب

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة الوادي - (الجزائر)

مخبر التكامل المعرفي، جامعة الوادي.

begui-imane@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/05/15 تاريخ النشر: 2021/11/04 ذ

ملخص:

يمثل ديوان الزمن الأخضر للشاعر أبي القاسم سعد الله تجربة إبداعية متفردة؛ وذلك بنزوعه إلى الاتجاه الوجداني شكلاً و مضموناً، حيث وظف فيه كل الخصائص التي تميز بها الاتجاه الوجداني الرومانسي، مطلقاً العنان لخياله في تصوير الواقع بعاطفة ذاتية وقومية، بصدق إحساس وعفوية، فبرزت قصائده بصور فنية وجمالية متميزة، نسعى إلى التعمق فيها و تحليلها و إبراز جماليتها في هذا المقال .

الكلمات المفتاحية: التجربة، الوجدان، الشعر، الجزائري، الرومانسي.

Abstract:

The « Ezzamen Elakhdar » collection of poems book by Abou Elkasim Saadallah represents a unique and creative experience, in wich he follows an emotional tendency in the form as well as the content. The poet used all the characteristics of the emotional romantic style where he lets his imagination and creativity go on to describe the reality with passion, love, subjectivity and patriotism. In this article we explore and analyse the creativity and the beauty of this style.

Key words : Experience, conscience, poetry, Algerian, romantic.

تمهيد:

يجمع الباحثون على أن الشعر الجزائري كان متأخراً في نشأته مقارنة بنظيره المشرقي؛ إلا أنه شهد نهضة كبيرة مع انطلاق الثورة التحريرية، حيث أظهر الشعراء الجزائريون تقدماً باهراً في مسيرة الشعر العربي وكان من بينهم محمد العيد آل خليفة ورمضان حمود؛ هذا الأخير الذي سبق عصره بما قدمه من شعر، ونظريات شعرية جديدة، فجاء الشعر الجزائري ليُنهض الهمم في النفوس، ويدافع عن الهوية الجزائرية من الانمحاء والذويان داخل الهوية الغربية؛ فسارع الشعراء في نظم الشعر من

ذواتهم متأثرين بالواقع الدامى والمحزن الذى يشهدونه، فقدموا لنا شعاعاً مكتوباً بدماء شعبيهم وكفاحه، نابعة من وجدان عميق.

كانت بداية الاتجاه الوجدانى فى الشعر الجزائرى الحديث، تتميز بالبطء والركود، فى ما* أكد بعض الباحثين على خلو الأدب الجزائرى من الاتجاه الوجدانى أو ما عرف بالرومانسى، إلا البعض؛ لأن انصراف الشعراء كانناحية الشعر الوطنى والإصلاحي أكثر من الأغراض الأخرى، هذا ما أكده صالح خرفى فى كتابه الشعر الجزائرى، وكذا أبو القاسم سعد الله فى كتابه دراسات فى الأدب الجزائرى الحديث، حيث يفسران ذلك "بأن النزعة الوجدانية الغزلية فى الشعر الجزائرى، عاشت حبيسة عاملين متضافين: المأساة الاستعمارية، والتقاليد القومية"،¹ فقد كان الظلم الذى يتعرض له الجزائرى أكبر من أن يفكر الشاعر فى ذاته وعواطفه، والقيود التى فرضتها فرنسا على الجزائريين، مما جعل جل الشعر ينصب فى موضوعات الثورة، والوطن، والبطولة، والشهداء،...وغيرها.

أما التقاليد القومية والاجتماعية فى عادات تربي عليها الفرد الجزائرى ككل؛ سواء كان شاعراً أو غيره، إضافة إلى الجمعيات الإصلاحية التى كان لها الدور الأكبر فى تمسك الفرد الجزائرى بتقاليدِهِ أيما تمسك، "والتقاليد فى الجزائر لا تختلف عنها فى أى وطن عربى أو عصر أدبى فى تنزع إلى دين واحد وتتعاقد على ميراث واحد، وربما تميزت فى الجزائر بهذا التزم الذى طغى عليها، وهذه المغالاة والرهبانية التى لا يعترف بها الإسلام وهو الجو الصوفى الذى جرف المجتمع فى انتعاش (الطرقية) و (الزوايا)،"² وهذا "مما جعل الشاعر يبتعد عن التصريح بعواطفه، فيعمد إلى إخفائها أو الرمز إليها."³ وقد انطلقت أول شرارة للشعر الرومانسى فى الجزائر مع فكرة التجديد التى اقترحها الشاعر رمضان حمود فى أواسط العشرينيات، حيث كان متأثراً بالأدب الغربى وخصوصاً الأدب الفرنسى حيث دعى إلى ترجمة الآداب الغربية ومحاكاتها، ويظهر جلياً فى النصوص النقدية التى كتبها "ما يدل دلالة قوية على صلته الوثيقة بالأدب الفرنسى وإعجابه الشديد بالشعر الرومانسى، فقد سمحت له ثقافته المزدوجة أن يطلع على إنتاج الأدباء الفرنسيين وكان معجباً بصفة خاصة بأدباء الثورة الفرنسية"⁴، فأراد أن يبعث هذا الحماس فى نفوس الأدباء الجزائريين للنهوض بالأدب الجزائرى ودعوتهم لحرية التعبير.

مؤكداً ذلك أيضاً من خلال "انتقاده للمفهوم التقليدى المحافظ للشعر، والدعوة إلى التجديد من منحنى وجدانى رومانسى إذ سار فى الاتجاه الذى سار فيه الشعراء الرومانسيون فى أوروبا، ولاسيما فى فرنسا وهو بناء نظريات شعرية جديدة على أنقاض نظريات كلاسيكية قديمة وهذا ما دل عليه مقاله: "الشعر وفوائده" المنشور فى مجلة الشهاب فىفري 1927"⁵. إلا أن آراءه ونظرياته غدت حبراً على ورق فى ظل تمسك الشعراء الجزائريين بالاتجاه التقليدى المحافظ فى الشعر بالإضافة إلى حساسيتهم اتجاه الأدب الفرنسى باعتباره مغتصب الأرض، إلا أن الأمور لم تبق على هذه الحال، "فنغمة اليأس من الحياة عادت إلى الظهور فى النصوص الشعرية بصفة أكثر حدة ولاسيما فى السنوات (1943-

1954) مما يدل على أن الأوضاع الاجتماعية، التي هي وليدة التأثيرات السياسية والاقتصادية، لها تأثير مباشر في توجيه الشعراء إلى الشعر الذاتي الوجداني فقد أخذ الشعر الجزائري في هذه الفترة يتجه اتجاهها واضحاً إلى التعبير عن المشاعر الفردية، وظهرت فيه انعكاسات التجربة الذاتية بعد أن كانت نظرة الشاعر تنطوي عليها الغيرية وشعر المناسبات.⁶ بذلك يمكننا القول بأن جهود رمضان حمود لم تذهب هباء منثوراً، مع تصاعد الأوضاع السياسية والاجتماعية وتآزمها برز العديد من الشعراء الجزائريين ممن تأثروا بأرائه في الشعر ومن بينهم الشاعر محمد العيد آل خليفة، بالرغم من أنه بقي محافظاً على النموذج القديم في الشعر إلا أنه أضاف إليه الكثير من التغييرات، ويظهر ذلك جلياً في العديد من القصائد الغزلية له ومن بينها "أين ليلاي" والتي مزج فيها بين عاطفتين ذاتية وأخرى قومية، "ذلك أن شعر الحب، لم يعد ينقل عاطفة مفردة بسيطة، وإنما ينقل غابة متشابكة الغصون من العواطف والمشاعر".⁷

حيث تكشف لنا قصيدة (محمد العيد آل خليفة) بوادر المذهب الرومانسي والذي يتضح من خلال خصائصه الملموسة في القصيدة، من توظيف للألفاظ السهلة، وامتزاج مأساته بالطبيعة ومشاركته لها وبث حزنه إليها، فعبرت عن تجربة شعرية ذاتية مزجت بعاطفة وطنية، وقد سار على نهجه العديد من الشعراء قبل الثورة التحريرية وبعدها، ممن أرادوا التمرد على القواعد التقليدية، والنموذج السائد، والبحث عن الجديد لكسر حواجز الصمت، والتطلع إلى الحرية، فنجد شعراء كثيرون وجدوا في هذا الاتجاه ما يعبر عن خلاتهم، ويلائم معاناتهم اليومية وما يشعرون به من ثورات نفسية من أبرزهم أحمد سحنون، مبارك جلواح، أبو القاسم سعد الله ومحمد عبد القادر السائحي، كما ظهر عند شعراء الاستقلال مثل محمد بن رقطان، مصطفى الغماري، مبروكة بوساحة، جمال الظاهري وغيرهم.⁸

أضف إلى ذلك تأثر الشعراء الجزائريين ممن رحلوا إلى المشرق العربي للدراسة في معاهده "وجامعاته مما ساعد على تفتحهم على ظروف وعلاقات اجتماعية جديدة نتج عنها قصائد حب"⁹، فقد كانوا على اطلاع دائم بكل جديد يخص الأدب والنقد في المشرق العربي، و"ليس أدل على هذا من إعجاب بعضهم الواضح بنزعة جبران الثورية التجديدية، معتبرين إياه من زعماء الأدب العربي، لأنه استطاع أن يسمو بالأدب العربي بأجنحة خياله..وقد اجتذبهم بصفة خاصة ما تنطوي عليه كتاباته من نزوع دائم إلى الحرية..حرية اللغة، حرية العقل، وحرية الشعور، فاستطاع أن يلهب النفوس بحماسته، ويشوقها إلى سماع رسالته."¹⁰

وعليه فإن الاتجاه الرومانسي في الشعر الجزائري "هو اتجاه غير مكتمل المعالم، لأنه لم يكن تياراً، أو مذهباً بالمفهوم الدقيق لهذه الكلمة، كما أنه لم يثر على الاتجاه الاتباعي كما ثارت الرومانسية الأوروبية من قبل ولكننا -مع ذلك- نلاحظ أن هذا الاتجاه قد خفف من حدة اللغة الكلاسيكية

وموسيقاها وطعم الشعر الجزائري بصورة جديدة، وقربه من عالم الوحي والإلهام، بعد أن كان تاج العقل والمنطق المتزن.¹¹

وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن القصيدة العاطفية نمت على يد هؤلاء الشباب، ومنهم "أبو القاسم سعد الله الذي ختم ديوانه (ثائر وحب) بثلاث قصائد حب وهي (صورة، حزن، شيء لا يبأح)، وهي قصائد ذات روح هادئة"¹²، فمن خلال عنوان الديوان نستشف فيها امتزاج العواطف وتداخلها، حيث جمعت بين الحب والثورة.

يعد أبو القاسم سعد الله من أوائل الشعراء الذين كان لهم قصب السبق في نظم الشعر الحر في الجزائر في رأي بعض الباحثين، لأنه كان مولعاً بالشعر المشرقي الحديث حيث صرح في مقدمة ديوانه قائلاً: "كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947 باحثاً فيه عن نفحات جديدة، وتشكيلات تواكب الذوق الحديث، لكنّي لم أجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء، بنغم واحد وصلاة واحدة.. ومع ذلك؛ فقد بدأت أول مرة أنظم الشعر بالطريقة التقليدية، أي كنت أعبد ذات الصنم، وأصلي في نفس المحراب، ولكنّي كنت شغوفاً بالموسيقى الداخلية في القصيدة، واستخدم الصورة في البناء.. غير أن اتصالي بالإنتاج العربي القادم من المشرق - وولاسيما لبنان - وإطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية، والنظريات النقدية، حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر."¹³ إذن فموجة التجديد هذه حملت في طياتها نفحات رومانسية وجدانية، وجد فيها الشاعر الجزائري متنفساً له لما فيها من تعبير عن الذاتية الفردية، والمعاناة الإنسانية التي كان يعانيها في ظل تلك الظروف.

وسعد الله يعد من أوائل الشعراء الذين رفعوا راية التجديد في الشعر الجزائري، وذلك بإصداره أول قصيدة في الشعر الحر وهي قصيدة "طريقي"، التي نشرت في البصائر بتاريخ 23 مارس 1955... وعلى ذلك اتفقت أغلب الدراسات والمتابعات، وكنل بداية؛ لم يخل النص الجديد من أثر رومانيسي التبس في الشعر الحر الجزائري بأصدااء الثورة وحلم التحرر، حمله الشعراء ضمن قصيدة أريد بها التعبير عن الهواجس الفردية في المقام الأول.¹⁴

وللتعمق في التجربة الوجدانية في الشعر الجزائري، اخترنا في دراستنا هذه قصائد من ديوان الشاعر الجزائري أبي القاسم سعد الله "الزمن الأخضر"، والذي جمع في طياته "ثمانين عنواناً ما بين قصيدة ومقطع وخاطرة؛ امتدت على مساحة تسع وسبعين وثلاثمائة صفحة (379)، دونها الشاعر في أماكن متفرقة أغلبها نظم في تونس، القاهرة، الإسكندرية، أمريكا (مينيابوليس)، الجزائر العاصمة، قمار -ولاية الوادي-...، أما من ناحية المواضيع المطروقة بين دفتي الديوان، فقد تغذت في أغلبها من رحيق الوطنية وفلسفة الحرية، وعبق الوجدانيات، ولوحة الطبيعة المنتشية حيناً والغاضبة حيناً آخر."¹⁵

1/التعريف بالشاعر:

أبو القاسم سعد الله شاعر جزائري ولد ببلدية قمار بوادي سوف، بالضبط في ضاحية تسمى البدوع، التي تعود تسميتها بالإبداع - حسب رأي سعد الله - أما عن تاريخ مولده؛ فتذكر جُلّ المراجع التي ترجمت له بأنه ولد حوالي سنة 1930م لأسرة محافظة، فقيرة تتمنّ الزراعة، وأهله من أوائل الفلاحين الذين عمروا قرية البدوع بغراسة النخيل.

حفظ القرآن الكريم في سن صغير، وتعلم بعض مبادئ اللغة العربية، وقواعد الشرع الحنيف، والمتون في النحو والصرف والفقهاء والعقائد، ثم التحق بجامعة الزيتونة بتونس سنة 1947م، وتخرج منه سنة 1954م، بعد ذلك التحق بكلية دار العلوم بالقاهرة وتحصل منها على الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية سنة 1959م.

وفي سنة 1960م سافر إلى أمريكا، والتحق بمركز اللغة الأمريكية فور وصوله وهو مركز مخصص للطلبة الأجانب لتعليم الانجليزية قبل ترسيم التحاقهم بالجامعة، ثم التحق بجامعة مينيسوتا الأمريكية، في تخصص التاريخ والعلوم السياسية فتحصل منها على شهادة الماجستير، ثم واصل دراسته العليا في نفس الجامعة إلى أن نال درجة الدكتوراه في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1965م.

درّس أبو القاسم سعد الله في العديد من الجامعات العربية والغربية منها جامعات أمريكا، وجامعات الجزائر، وجامعة الأردن، حيث جمع في رحلته العلمية ما بين التاريخ والأدب وعلم الاجتماع واللغات وغيرها، إلى أن وافته المنية صباح يوم السبت الموافق لـ 2013/12/14م، عن عمر ناهز 83 سنة بالمستشفى العسكري بعين النعجة، تاركا وراءه زادا علميا زاخرا في الأدب والتاريخ، ومن آثاره في الأدب ديوانين شعريين: "النصر للجزائر" و"الزمن الأخضر"، ومجموعة قصصية بعنوان: "سعفة خضراء"، وكذلك دراسات في الأدب والنقد منها كتاب دراسات في الأدب الجزائري الحديث، تجارب في الأدب والرحلة وغيرها من الدراسات.¹⁶

2/ ماهية مصطلح الوجدانية:

أ/ لغة: ورد في لسان العرب لابن منظور كلمة: "وَجَدَ) بمعنى (لمن وَجَدَ الضَّالَّةَ يَجِدُهَا)، ومنه الحديث "إني سائلك لا تجد علي"، أي لا تغضب من سؤالي، ووَجَدَ به وَجَدًا في الحب لا غير، وإنه ليجد بفُلانة وَجَدًا شديدًا، إذا كان يهواها ويحبها حبًّا شديدًا، ومنه "وَجَدَ الرجل في الحزن وَجَدًا بالفتح، وتَوَجَّدْتُ لفلان أي حزنْتُ له."¹⁷

إذن فهذه المعاني كلها تومئ إلى أصل كلمة وجدان، وتشير إلى أنها الحالات الشعورية التي تعبر عن الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان من سعادة، حزن، كآبة، يأس، تفاعل أو حب وغيرها من الأحاسيس.

كما وردت في معجم اللغة العربية المعاصرة كلمة "وجدانٌ {مفرد} مصدر وَجَدَ: موطن كل العواطف والرغبات والأحاسيس بالسعادة أو الحزن أو الأمل أو اليأس "حكم بالأمر حسب وجدانه"¹⁸.

ب/ اصطلاحاً: أما اصطلاحاً فالوجدانية مأخوذة من الوجدان وهو: عبارة عن حالات شعورية نفسية مختلفة تصيب الإنسان عند الإحساس باللذة أو الألم إضافة إلى حالات أخرى... وقد ارتبط هذا المصطلح بالأدب لكونه مرتبط بالحالات النفسية للأديب أو الشاعر، وقد ورد أيضاً في المعجم المفصل في الأدب أن "الوجدان حالة نفسية وانفعال عاطفي مفرح أو مؤلم، وفي الأدب هو الإحساس الداخلي لإدراك قيمة العمل الأدبي."¹⁹

3/ الاتجاه الوجداني في الشعر العربي:

الوجدانية هي اتجاه أدبي ظهر في الشعر العربي الحديث "منذ مطلع القرن العشرين، وظل ينمو ويتطور إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد عاش هذا الاتجاه مع الحياة (الاتجاه التقليدي)، وبدأ في التراجع أمام الاتجاه الواقعي الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية."²⁰

الاتجاه الوجداني هو ما يقابل المذهب الرومانسي الذي ظهر في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وتأثر به الكتاب والأدباء العرب عن طريق البعثات العلمية، والترجمة لما وجدوا فيه من التحرر الذي عجز عن تحقيقه الاتجاه الكلاسيكي، وما تنطوي عليه الكتابات الرومانسية الغربية من حرية في الشعور وحرية في العقل واللغة، إضافة إلى أنهم "وجدوا في الأدب الرومانسي وطبيعة المرحلة التي ازدهر فيها صورة - إن اختلفت في بعض ملامحها ودرجاتها - لما يعانون من صراع بين القديم والجديد ومن إحساس حاد بالذات ومن تطلع إلى المشاركة في تطور المجتمع الجديد"²¹، فנסجوا على منواله أدباً (شعراً ونثراً) وصنفوه ضمن الاتجاه الوجداني.

وأول من أطلق عليه هذا المصطلح هو "عبد القادر القط" في كتاب له بعنوان "الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر"، حيث درس فيه هذا الاتجاه مبيناً بداياته ومراحل تطوره في الشعر العربي مفرقاً بينه وبين الاتجاه الرومانسي الغربي وذلك نظراً لخصوصية كل أدب عن الآخر، حيث يقول: "ولهذا آثرنا أن نعدل عن مصطلح "الحركة الرومانسية" إلى الاتجاه الوجداني، وإن تسامحنا أحياناً فاستخدمنا المصطلح الأوربي كلما اقتربت طبيعة الشعر أو موقف الشاعر من طبيعة الرومانسية الأوربية اقتراباً يأذن باستخدامه. فنحن - مع ما أبدينا من "تحفظ" - لا نستطيع أن ننكر وجوه الشبه العديدة بين الحركة الرومانسية والاتجاه الوجداني في شعرنا الحديث."²²

4/ مميزات الاتجاه الوجداني في الشعر عامة:²³

أ/ إحساس الشاعر بذاته الفردية، وتعبيره عن تجاربه الخاصة، وتطلعاته وآماله في الحياة، من حب، وحرية، وكرامة، وتعبيره عن أحزانه، وغربته عن مجتمعه وتأمله في الحياة والكون.

ب/ الخيال الشعري الجامح الذي يتغير به لون الحياة، فهو بمثابة قوة جوهرية لعملية الخلق الفني، وفيه تُوظف الصور الشعرية والرمزية لإخراج قصائد وجدانية رائعة.

ج/ العودة إلى الطبيعة، حيث افتتن الشعراء الوجدانيون بالطبيعة ومزجوها بأنفسهم ووصفوها من خلال عاطفة معذبة، إذ وجدوا فيها عوضاً عن المجتمع المرفوض لديهم.

د/ تعبير الشاعر عن قضاياها الخاصة، نتيجة لإحساسه بفرديته وذاته، واتخذ للتعبير عن ذلك صوراً جديدة ابتكرها من خلال ذاته، وبعدّ فيها عن الصور التقليدية التي تتخذ من الشبه الحسيّ أساساً لها، واستخدم لذلك ألفاظاً معبرة موحية نقلها من الدلالات التي نقلت لها في اللغة إلى دلالات أوسع وأرحب.

ه/ الوحدة العضوية تعتبر من أهم سمات الشعر الوجداني، ويقصد بها "وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية، لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر." ²⁴ ولا تكاد تخلو قصيدة وجدانية من الوحدة العضوية، فتكون متصلة ببعضها متسلسلة كالبناء يشد بعضها بعضاً متكاملة الأجزاء.

وعليه فهذه مجمل السمات التي تميز بها الشعر الوجداني عن غيره من الشعر، حيث من الممكن أن تكون كل هذه المميزات مجتمعة في تجربة شعرية واحدة، أو تكون سمة واحدة غالبية عن السمات الأخرى؛ فموقف الشاعر تُجاه الكون والحياة والإنسانية هو الذي يحدد موضوعه وطريقته، "فقد نجد عند أحدهم التفاتاً ملحوظاً إلى الطبيعة، وعند آخر انشغالاً واضحاً بالحب وعند ثالث نظرة اجتماعية أو كونية أو أخلاقية غالبية، وقد نرى في أسلوبهم الفني توازناً بين القديم والجديد أو ثورة عنيفة على التقاليد الفنية، أو تأثراً بأساليب وافدة أو ابتكاراً ذاتياً يربط فيه الشاعر بين التراث وروح العصر الحديث." ²⁵

5/ مقومات الشعر الوجداني:

للشعر الوجداني الرومانسي مجموعة من المقومات أو المعايير النقدية وضعها الشعراء والنقاد للخروج بالشعر من قالب التقليد والجمود إلى فضاءات جديدة تسمح لهم بالانطلاق إلى عالم الحرية والخيال والتعبير عن الذات والمشاعر المكبوتة، التي كانت حبيسة التقليد والمحاكاة في قالب فني جديد بعيداً كل البعد عن الركافة والتقليد، فأصبحت القصيدة الوجدانية هي المتنفس الوحيد للشعراء تمنحهم الحرية من خلال مقوماتها والتي تتمثل في الذاتية، والعاطفة، والصدق، والخيال.

أ/ الذاتية: وهي من أهم مقومات الشعر الوجداني الرومانسي، سواء في الشعر العربي أو الغربي على حد سواء، وهي أن يجعل الشاعر من ذاته وما يداخلها من أحاسيس وما يخالجها من مشاعر وأهواء موضوعاً لشعره. حيث أن "أهم ما يميز الشعر الغنائي عن الشعر القصصي أو الدرامي هو أنه يعبر مباشرة عن مشاعر المتحدث وأفكاره أي أنه تعبير ذاتي؛ فالشاعر لا يتحدث عن الآخرين بل عن تجربة ذاتية فموضوعه هو مشاعره." ²⁶

وقد اختلفت هذه الأنا أو الذات عند الوجدانيين في الشعر العربي في نظر بعض الدارسين، حيث أضحت هذه الذات متذبذبة لا تعرف الاستقرار وجعلت من الشاعر الوجداني "متأزماً إلى أبعد حدود، فلا هو متوازن في علاقته بذاته ولا هو منسجم مع المحيط الذي يعيش في كنفه."²⁷

ب/العاطفة: إن العواطف في نظر الشعراء الرومانتيكيين من أهم المقومات التي يقوم عليها شعرهم، حيث يرون أن العاطفة هي أساس كل الشعر، "وقد اجمع الأدباء والنقاد قديماً وحديثاً على دور العاطفة في نظم الشعر، وأفاضوا الحديث عنها في كتاباتهم وآرائهم النقدية، فهي المعيار الفاصل بين جيد الشعر وردئته، وهي من أهم العناصر التي تميز الشعر الغنائي الوجداني وبدونها لا يكون غنائياً، والدليل على هذه الأهمية أن كل الشعوب عرفت الشعر الغنائي، بما فهم العرب الذين يعدون أشعر هذه الشعوب، فهو ديوانهم وشاهد على أيامهم وأخبارهم، حيث أجادوا التعبير عن عاطفة الفخر إعجاباً وتقديراً وعاطفة الحماسة خصومة وجدلاً، وعاطفة الهجاء سخطاً وكرهية، وعاطفة الرثاء ألماً وحزناً، وعاطفة الغزل حبا وشوقاً"²⁸، حتى أصبح الشعر العربي "غنائياً محض لا يعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه والتعبير عن شعوره وحسه، والعواطف تتشابه في أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة"²⁹.

يتضح مما سبق بأن العاطفة من أهم مقومات الشعر الوجداني، لأنه لا تكمن هذه الأهمية بمفردها وإنما بانسجامها مع الفكر والخيال فتشكل لنا بذلك عملاً إبداعياً متكامل الأجزاء صادق العواطف يؤثر في المتلقي.

ج/الصدق: يعد الصدق أبرز مقومات الشعر الوجداني، ومن أهم القضايا النقدية التي عرفت جدلاً واسعاً بين الباحثين والنقاد قديماً وحديثاً، حيث أن مفهوم الصدق في الأدب يختلف كل الاختلاف عن مفهومه في العلم، فالصدق في الأدب هو توظيف لغة الخيال والمشاعر الصادقة للأديب لكي يؤثر في المتلقي، أما الثاني فيستخدم فيه اللغة العلمية والحجج والبراهين لإقناع المتلقي.

ففي الدراسات النقدية للشعر العربي القديم حدد نوعان للصدق: "الأول: الصدق الواقعي ويقصد به وقوف الشاعر عند حدود الأخلاق، فلا يمدح البخيل بالكرم، ولا القبيح بالجمال، فصدق الشاعر مرده إلى العرف الاجتماعي وهو ما كان معروفاً في العصر الجاهلي. أما الثاني: فهو الصدق الفني ويقصد به أصالة الكاتب أو الشاعر في تعبيره."³⁰ إذ نال نقاد قديماً بهمهم الصدق الواقعي أكثر من الصدق الفني؛ لأن هذا الأخير لا يتماشى مع أعرافهم وتقاليدهم الاجتماعية، لأن الاهتمام فيه منصب بالصور الشعرية والتنميق اللفظي أكثر من المعنى.

لكن تغيرت هذه النظرة في العصر الحديث مع تغير الحياة والظروف الاجتماعية ظهرت مناهج نقدية حديثة ومدارس أدبية جديدة تغيرت معها نظرة الشعراء والأدباء والنقاد للحياة، فأصبح هم الشعراء هو الإفصاح عن عواطفهم ومشاعرهم دون قيد أو خوف بتعبير صادق فزاوجوا بين الصدق الفني والصدق الواقعي، لذلك ندرك أن الشعر الوجداني "نابع من معين الوجدان الصافي، وأن أصحابه

كانوا صادقين في حبهم وبغضهم، وفي فرحهم وحزنهم وتعلقهم بالحياة، وتمنيه الموت، والألم بالنسبة إليهم هو المهماز الذي يلهب القرائح، ويسم الأدب بميسم الجمال والصدق.³¹ يتضح من خلال ما سبق بأن الصدق من أهم سمات الأدب عامة، والشعر الوجداني خاصة؛ لأنه وبالرغم مما يحمله من جمال الخيال وبديع الصور إلا أنه ورد عن صادق إحساس وبتعبير جدي يعري كل الحقائق ويمحو كل زيف.

د/الخيال: يمثل الخيال أحد الركائز الأساسية في العمل الأدبي على اختلاف أنواعه، وقد حظي باهتمام النقاد والباحثين قديماً وحديثاً وتبرز أهميته في العمل الأدبي كونه الملكة التي تصنع الصورة الأدبية، فمن دونه لا يمكن أن نسمي الأدب أدباً، "فهو ضروري في كل أنواع الأدب، وهو الكوة التي نستطيع بها أن نصور الأشخاص والأشياء والمعاني، ونمثلها شاخصة أمام من نخاطبه ونستثير مشاعره."³²

والخيال بالنسبة للشاعر الحديث هو "استجابة لحاجة ملحة في نفس الرومانتيكي، ولكنه مصدر ألم وحزن، ويقود التأمل فيه إلى آفاق فسيحة في جوانب النفس الإنسانية يرتاع أمامها من يكتشفها."³³ فالشاعر الحديث والرومانسي على الخصوص يجعل من الخيال هاجساً وعالمًا خاصاً يهرب إليه من عالم الحقيقة، وبذلك اتسع مفهوم الخيال في الشعر العربي الحديث والمعاصر ليكون "نشاط خلاق، لا يستهدف أن يكون ما يشكله من صور نسجاً أو نقلاً لعالم الواقع ومعطياته، أو انعكاساً حرفياً لأنسقة متعارف عليها أو نوعاً من أنواع الفرار، أو التطهير الساذج للانفعالات بقدر ما يستهدف أن يدفع المتلقي إلى إعادة تأمل في واقعه، من خلال رؤية شعرية،"³⁴ أي يمكن الشاعر من تجاوز الواقع من خلال تعميق الوعي والنظر من جانب آخر للواقع والكون والحياة واستشراف المستقبل.

6/ مصادر أبي القاسم سعد الله في شعره:

مما لا شك فيه أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله هو شيخ المؤرخين الجزائريين هكذا اشتهر، وهو مفكر متحصل على درجة الدكتوراه في التاريخ والعلوم السياسية، وله العديد من المؤلفات والدراسات في هذا المجال، وإبداعه لا يتوقف هنا؛ بل هو أديب، وشاعر، لذلك نجد الكثير من الباحثين والدارسين من غفل عن جانبه الأدبي، فأردنا من خلال هذا البحث أن نميط اللثام ونبرز هذا الجانب من شخصيته الشعرية الفذة، باعتباره ليس أديباً وحسب وإنما هو ناقد، وقاص، ومحقق، ومترجم، ولا ننكر أن هناك بعض الدراسات التي سلطت الضوء على هذا الجانب منها بحوث أكاديمية ومقالات وغيرها، لذلك لم نأت بالجديد وإنما تنمة لما جاء به غيرنا، وقد وقع اختيارنا في هذه الدراسة على روح الشاعر في شخصه، فأردنا التعمق والتعريف به كشاعر جزائري حمل على عاتقه هموم ومشاعر وآلام وأمال وطنه في ظل محاربه للمستعمر، في زمن قل فيه الأدباء والشعراء، وأفلت فيه شمس الحركة الأدبية الجزائرية تحت يد الاحتلال الفرنسي الغاصب.

"كان أبو القاسم سعد الله شاعراً فرض نفسه على الساحة الأدبية الجزائرية بوقفات فنية جميلة، جسدها قصائد الديوانين "النصر للجزائر" و"الزمن الأخضر"³⁵، حيث صرح قائلاً عن أولى محاولته الشعرية: "أذكر أن أولى محاولتي الشعر المكتوب كان في ظل النخيل بمسقط رأسي المسعى البدوع حوالي أربع ك.م من قمار، وكان ذلك في الصيف الأول من رجوعي من تونس."³⁶

وقد تضافرت عدة عوامل جعلت من الشاعر يسلك المنحى الرومانسي الوجداني في شعره، أولها كان "نتيجة لظروف البيئة التي شب فيها سواء في وادي سوف أو في تونس، حيث رمال الصحراء الذهبية والنخيل وخير السواقي وأصوات الحيوانات وصفاء الطبيعة ونقاها، كلها عوامل ساعدت سعد الله على تنمية ثقافته الأدبية، وسلوكه المنحى الرومانسي، بالإضافة إلى حبه الشديد للخلوة والانزواء، يطالع الكتب والمجلات لساعات طويلة، فكان يجلس فوق العشب وحفيف الأشجار"³⁷.

كما كان لاغترابه وسفره إلى الخارج للدراسة أو العمل، الأثر البالغ في تطوير تجربته الشعرية، فقد كانت بداياته الأولى مع نظم الشعر في سن الشباب أي في العشرينات من عمره، وذلك عندما كان يدرس في جامع الزيتونة بتونس، حيث صقلت موهبته الشعرية عندما كان يقرأ مجلة الآداب البيروتية القادمة من المشرق، فتأثر بشعراء وكتاب المشرق العربي ومنهم جبران خليل جبران، وإيليا أبو ماضي، وميخائيل نعيمة كما أعجب بشعر الشابي، ومؤلفات الراجعي، حيث يقول: "كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947 باحثاً فيه عن نفحات جديدة (...). غير أن اتصالي بالإنتاج العربي القادم من المشرق -ولاسيما لبنان- واطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية، والنظريات النقدية، حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر"³⁸، وهي دعوة إلى تغيير مسار الشعر الجزائري خاصة والعربي عامة، والانسلاخ من كل النماذج التقليدية القديمة، والبحث عن نموذج جديد يوائم ذلك العصر، ويخدم الثورة، ويحقق التحرر من كل القيود المعنوية والمادية، فهو يصرح بالذاتية الفردية، وهي أول مبادئ المذهب الرومانسي الوجداني.

كما لا يمكن أن نغفل الجوانب الاجتماعية والسياسية للبلاد، والتي كان لها الأثر البالغ في تأجيج نفوس الشعراء وبث الحماسة فيهم ومنهم سعد الله، خاصة وبعد أعمال التنكيل والتعذيب التي مارسها الاستعمار الفرنسي في حق الجزائريين، و"التي كانت أثارها على نفسية الشعراء الجزائريين قاسية، إذ خيبت آمالهم في نيل الاستقلال، فنشأ لديهم الشعور بالحزن والحرمان بعد أحداث الثامن ماي خاصة، وكانت وسيلة الشعراء إلى التعبير عن هذا الإحساس رومانسية حزينة وإن لم تكن سوداوية قاتمة"³⁹.

لسعد الله الكثير من القصائد التي تتحدث عن الثورة الجزائرية وتمجد أبطالها، والتي جمعت في ديوان سماه "النصر للجزائر"، وكذا ديوان "الزمن الأخضر"، الذي جمع في طياته قصائد الثورة، والحب، والحرية، والطبيعة وغيرها... وتتضح تجربته الوجدانية الرومانسية من خلال تعريفه له: حيث يقول "لو طلب إلي أن أعرف الشعر لقلت بأنه قصة شعور إنساني في لحظة خاصة تؤدي

بالحرف، فالشاعر لا ينظم في حالة عادية، بل حين يبلغ شعوره، درجة الانفعال العاطفي، وهو لا ينتج في كل وقت، ولكن في لحظة تأزم حاد...وقمة الشعور الإنساني لها أسماء مختلفة في عالم الشعر فقد تكون لوعة الحب، أو شعلة ثورة، أو اختناقة يأس وهذا يصدق على كل موضوعات الشعر⁴⁰، فهو بهذا المفهوم يؤكد بأن الشعر شعور ووجدان، ينبع عن عاطفة ذاتية في لحظة شعورية متأزمة يتعرض لها الشاعر في وقت من الأوقات فتلتحم بذلك ذاتان، ذاته وذات المجتمع الذي يتعايش فيه فينتج لنا صورة محملة بالوجدان مثقلة بالهموم والأهواء، وترسم لنا الواقع المعاش فهو بهذا يؤكد لنا أن الشاعر لا يكتب إلا عن تجربة عاشها.

7/ مظاهر الوجدانية في شعر أبي القاسم سعد الله:

عندما يمتلك الشاعر حس الوطنية، وتتفجر روحه الشعرية لما يعانيه شعبه ووطنه من آلام وخراب ودمار على مرأى عينيه، يتخذ من قلمه سلاحاً، ومن شعره دواء يداوي به جراحهم ويبث في نفوسهم آمال الحرية التي تعطشت لها أرواحهم، وبالتالي نضجت لديه التجربة الوجدانية لتمنحه صدق البوح ورومانسية الشعور وعذوبة الشعر، "الشاعر الوجداني يعتقد أنه صاحب رسالة تقوم على مثل عليا من الأخلاق والسلوك لا سبيل إلى سعادة المجتمع الإنساني بدونها، وهو مدفوع إلى بلاغ هذه الرسالة بما يحس من وجدانه من وجود روحي يحن إلى عالمه الروحي القديم ويسمو به على شهوات الحياة الدنيا وأطماعها"⁴¹، وهذا ما حدث في شعر أبو القاسم سعد الله وخاصة ديوانه "الزمن الأخضر" الذي نستشف من خلاله استحضار الشاعر لزمينين أخضرين الأول زمن الشباب و الثاني زمن الثورة، وقد اخترنا من هذا الديوان بعض القصائد والتي تظهر فيها شاعرية وإنسانية الشاعر الحرة في طرح تجربته الشعرية الوجدانية الخاصة.

الثورة وحبّ الوطن:

اتخذ الشاعر من الثورة التحريرية محوراً في أشعاره، لما خلفه الاستعمار الفرنسي من معاناة وظلم وحرمان لوطنه وشعبه، ترك بصمة في نفوس الشعراء خلفت وراءها تراكمات نفسية وشعورية مختلطة، ولدت قيم فنية وإنسانية كثيفة. هذا ما ورد في قصيدته "ثأروحب" والتي جعل من عنوانها عنواناً لديوان منفرد، حيث نستشف من عناونها دلالات كثيرة منها الثورة، الحزن، والحب، التفاؤل... وغيرها من الدلالات اللامحدودة والتي تنبع من وجدان الشاعر، والتي أعلن فيها الثورة على كل القيود، وربط هذه الثورة بالحب الذي هو رمز الوفاء وأن المحب يدفع أي ثمن في سبيل من يحب.

تجلت قدرة الشاعر في رسم صور شعرية كثيرة ومتنوعة، جسدت لنا لوحة لوطن دامي قاسى الولايات والحروب في سبيل استنشاق عبير الحرية يقول في بدايتها:

أوراسُ والدماءُ والعرقُ

وصفحةُ السّماءِ والعسَقُ

والأفقُ المَحْمُومُ راعف حنق

كَأَنَّهُ وَجُودِي الْقَلْق
قَدْ ظَمَمْتُ عَيْوُهُ إِلَى الْقَلْق
وَسَالَ مِنْ أَطْرَافِهِ دَمُ الشَّقَقِ..
وَنَجْمَةٌ مِنَ الشَّمَالِ تَحْتَرِقُ⁴²

حيث تبدو كلماتها سهلة بسيطة لكنها محملة بدلالات وإيحاءات عميقة تبرز مدى معاناة وألم هذا الشعب ومدى قسوة الاحتلال، وتعكس لنا ما في وجدانه من مشاعر الحزن والقهر، ومن هذه الكلمات، (الدماء، العرق، المحموم، الراعب، القلق، دم الشفق، تحترق، محمرة، الجراح، العواصف... وغيرها من الكلمات المحملة بالألم، "والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني، أو يرسم بها صورته الشعرية، لذلك يتصل الحديث عن الصورة الشعرية ببناء العبارة"⁴³، وإذا أردنا تصنيف المفردات السابقة فإنها تصنف ضمن حقل دلالي وحيد وهو الثورة، وقوله نجمة من الشمال تحترق يرمز بنجمة الشمال لوطنه الجزائر الذي يحترق من ويلات المستعمر الغاشم. وقوله أيضاً:

وَالتَّهْرُ وَالنُّعُومُ وَالسَّمَرُ
وَالضَّفَّةُ الخَرَسَاءُ وَالصَّخْرُ
مُنْتَهَرٌ... وَزَائِرُ القَمَرِ
يَطْلُ فِي حَدَرِ
وَصَوْتِكَ الحُلُو النِّعَمِ
فِي مَسْمَعِي كَرَعِشَةَ الحَلْمِ
كَخَفَقَةِ الصَّبَاحِ المُنْتَظَرِ
وَحُبْنَا النُّضْرِ
حَبِيبَتِي⁴⁴

فالشاعر هنا يستسلم لأحلامه ويطلق العنان لخياله الفيّاض رغم الأحزان والمعاناة التي يعيشها في نفسه مع شعبه، مبشراً إياه بالصباح المنتظر الذي لطالما أنشده، وهي الحرية والاستقلال. ويستمر الشاعر في الكشف عن معاناته الوجدانية، وذلك بربط ألم فراقه عن وطنه واعتراجه عنه بألم الفراق عن الحبيبة، ورمز للوطن بلفظة حبيبتى حيث يقول كأنه يخاطب حبيبته البعيدة والتي بذكرها العبق قلبه يدق وبفراقه عنها يعيش الألم ومرارة فقدان.

وَنَجْمَةٌ مِنَ الشَّمَالِ تَحْتَرِقُ
كَقَلْبِي الَّذِي يَدُقُ
بذِكْرِكَ العَبَقِ

يشير الشاعر بذكره "للأوراس والأطلس والأبيض"، في هذه القصيدة إلى الجبال الشامخات الشاهقات في الجزائر، والتي تغنى بها العديد من الشعراء الجزائريين وعلى رأسهم شاعر الثورة مفدي زكرياء، والتي لطالما كانت حصناً منيعاً ومنبعاً للثوار والمجاهدين وملجأً لأهالي المنطقة يأوون إليها أيام الغزوات والحروب. حيث يقول:

أُورَاسُ وَالدِّمَاءُ وَالعَرَقُ
وَصَفْحَةُ السَّمَاءِ وَالعَسَقُ
وَالأُفُقُ المَحْمُومُ رَاعِفَ حنق...

وقوله:

وَالأَطْلَسُ الأَنْوَفُ وَالبَطَاحُ
مُحْمَرَّةُ الخُدُودِ بالجِرَاحِ
وَعَابَةُ البَلُوطِ كَالأَشْبَاحِ...⁴⁶

وقوله أيضاً:

وَالأَبْيَضُ الصَّخَابُ وَالعَبَابُ
وَزَوْرُقٌ كَأَنَّهُ شَهَابُ
يَنْسَابُ فَوْقَ سَطْحِهِ أنْسِيَابِ...⁴⁷

وهذه الصور الشعرية الممتدة على طول القصيدة، تكونت من عدة صور جزئية متتالية مرتبطة في ما بينها بواو العطف، (أوراس، ودماء، وصفحة، والغسق، والأفق،... والأطلس، والبطاح، وغابة، والأبيض، والعباب، وزورق...)، تصور لنا مشاهد الجبال الجزائرية المخضبة بدماء الشهداء، والعرق المسال من المجاهدين الأحرار، وبالأنوف والبطاح محمرة الخدود بالجراح تأبى الاستسلام، وبالجب وعزمة الأحرار تنادي إلى الغد المنشود.

هكذا قدّم الشاعر هذه الصور الشعرية في لغة شعرية موسيقية متناغمة فيما بينها، تبرز صدق وعفوية تجربته الوجدانية اتجاه وطنه وشعبه في أرقى تعبير وأجمل كلمات.

أمّا في قصيدته "ربيع الجزائر" فقد تغنى الشاعر فيها بأبطال الثورة والشهداء، ونادى فيها بالحرية، وقد اعتبرها بعض النقاد استشراقاً للمستقبل، لأنه بشرّ فيها بميلاد جزائر حرة مستقلة وذلك قبل الاستقلال بحوالي خمس سنوات من تاريخ صدورها سنة 1957م، حيث يقول:

من اللَّهَبِ الأَزْرَقِ
ومن حُمْرَةِ الشَّقَقِ
ومن لَوْنِ الدَّمِ المُرْهَقِ
سَيَصْحُو الرِّبِيعِ

وتزهُو الورود العذاري

على كلّ ذرّب

وفي كلّ قلب

تمائيل فخر

وتيجان حُب

إلى الشُّهداء⁴⁸

وظف الشاعر ألفاظاً موحية ومعبرة عن الحالة النفسية إلى كانت سائدة أيام الثورة، مستمداً بعضها من الطبيعة التي تشاركه أحزانه كعادة الشاعر الوجداني، وبعضها الآخر من عوالم ذاته التي تجيش بالعواطف تجاه بلده وشعبه المستعمر، حيث وظف اللون الأحمر الذي يدل على الصراع والدم والثورة (اللب، حمرة الشفق، الدم المرهق)، كلها توحى بتأزم الأوضاع ومن ثمّ تلوح البشائر في الأفق بقوله سيصحو الربيع وتزهو الورود العذاري؛ أي الحرية والاستقلال في كل شيء في البلاد وفي العباد ستغير الحياة وتتبدل القلوب وتكسر حواجز الصمت في ظل الاستعمار والتقاليد ويمس التجديد كل شيء في الحياة.

الشكوى والحنن:

الشكوى من أهم المشاعر التي عبر عنها الشعراء الوجدانيون في قصائدهم، وهي نغمة تتردد كثيراً في أشعارهم ويصاحبها شعور بالأسى والألم والحنن " والمتتبع لدواوين الشعراء يلمس كثيراً من مظاهر الشكوى وتجلياتها، ويرى أنها طريق ومنفذ للراحة والتنفيس من أوجاع النفس، وأهم ما يميز الوجداني دقة الإحساس ورهافته ويقظته، فلا تمر المواقف عليه إلا وتترك أثراً على مشاعره المرهفة يغضب سريعاً ويفرح سريعاً"⁴⁹ وهذا ما نلاحظه في شعر سعد الله حيث يقول في قصيدته " الليل والجرح": (من أعماق نفسي الحزينة أهديك هذه الأبيات)

اللَّيْلُ يَا وَحِيدَتِي، جَرَّاح

مُمَرِّقُ الرُّؤْيَى، مُعَدَّبُ الصَّبَّاحِ

عَيْنَاهُ تَبْكِيَانِ دَم

أَنْسَامُهُ شَهَقَاتُ هَم

أَسِيرٌ فِي ضَبَابِهِ بِلَا مَصِيرِ

أَمْشِي.. وَمُخْلِطُ الْأَسَى

يُمِيتُ البَسْمَةَ الحَنُونِ.. عَلَيَّ فَيَّي..⁵⁰

أراد الشاعر من خلال هذه الأبيات أن يعبر عما في أعماق نفسه الحزينة، ويحاكي حبيبته ويشكو إليها همه وحزنه وليله الطويل المليء بالمعاناة، وقد وظف فيها ألفاظاً موحية ذات رومانسية حزينة، فمن خلال عنوانها-الليل والجرح- ندرك أن الشاعر متأثر بالاتجاه الرومانسي الوجداني في اختيار

ألفاظه، فلفظة الليل هي من أكثر الألفاظ المتداولة والشائعة لدى الوجدانيين، حيث تجسد ألفاظ "الليل، والمساء، والغروب، والظلمة، تعبيرا عن الخوف والقلق والتوجس من الغد المجهول وهذا الميل عندهم يعبر عن إحساس متأصل في نفوسهم." ⁵¹ وقوله:

لَا مَاءَ فِي الطَّرِيقِ
صَوْتِي يَجْفُ فِي فَمِي
حُبِّي يَصِيحُ فِي دَمِي
لَا قَلْبُ فِي الطَّرِيقِ
أُعْطِيهِ وَرْدَةَ حَمْرَاءَ
وَكَلِمَةً قُدْسِيَّةَ النَّعْمِ
تَضُجُّ بِالنَّدَاءِ ⁵²

تجلت قدرة الشاعر هنا في تصوير حالته النفسية العميقة وما يشعر به من خلال اختياره للألفاظ التي تتواءم وحالته الشعورية "فالذي يهيم الشاعر الوجداني قبل كل هذا هو أن يجد للفظه التي تنسجم انسجاماً طبيعياً مع ما يحس به داخل أعماقه، ومن ثم فإن الملاحظ هو ميل أكثر الشعراء الوجدانيين إلى الألفاظ المؤثرة بموسيقاها الهامسة هذه الألفاظ التي تمتلك طاقة ذاتية في إشاعة الجو النفسي الملائم حولها" ⁵³، فالملاحظ في إنتاجه للغة استخدامه مفردات جديدة لم تكن معروفة ومن الواضح أن هذا الموقف اتخذته الشعراء الوجدانيون من قبله فهو موقف نابع من داخل هذه الأنفس العاطفية ذات الميول الثائرة المنحرفة من كل القيود مادية كانت أم معنوية، فألفاظ (الليل، جراح، ممزق، معذب، تبكيان، شهقات، أسير، بلا مصير، مخلب الأسي، لا ماء، يجف، لا قلب، تضج، النداء، الدجى، الحزين.....) وغيرها كلها كلمات توحى بالألم والحزن والشكوى من الغد المجهول.

رسم الشاعر صورة معاناته مع الليل لوحيدته في لغة شعرية بطريقة تصويرية عن طريق تجسيد المعاني المجردة وتحويلها إلى أشياء مادية تكاد تلمس باليد، حيث يقول: (الليل يا وحيدتي جراح، ممزق الرؤى، عيناه تبكيان دم، أنسامه شهقات هم... ومخلب الأسي، يميمت البسمة الحنون..) حيث أراد الشاعر بهذه الصور الشعرية بيان حالته النفسية والشعورية في الليل، حيث رسم صورة سوداوية لليل وشخصه، وجعل له عينان تبكيان دم، وجعل له نسيمات خاصة تزفر شهقات الهم، وأيضاً جعل للأسي مخلب يميمت كل الفرح والبسمة المرسومة على فمه، حيث بدى في قمة التشاؤم والقلق والحيرة من الصباح المنتظر.

وقد كان الشاعر في هذه القصيدة مقام الراوي في حديثه عن الليل وصرخاته من الألم حيث يقول: (وصوتي يجف في فمي، وحبي يصيح في دمي، لا قلب في الطريق.....، وكلمة قدسية النغم تضج بالنداء...) وقد استخدم فيها الألفاظ بطريقة جديدة ومغايرة على ما كانت عليه في الاتجاه التقليدي، وهي

خاصية تألف مدركات الحواس" وذلك باستخدام مجاز جديد يقوم على التألف بين مدركات الحواس، والتجاوب بين المعطيات الحسية المختلفة من ألوان، وأضواء، وأصوات، ونغمات، وعبور، بحيث نراهم يستخدمون للشيء المسموع ما هو في الأصل للشيء الملموس أو المرئي أو المشموم⁵⁴، والعكس بالنسبة للحواس الأخرى وهكذا، حتى يتمكن الشاعر الوجداني من توسيع دائرة خياله ويطلق العنان لعواطفه، ويضفي على شعره صوراً ذات خيال مجنح تضيء جواً رمزياً، إيحائياً ومؤثراً ومثال ذلك قوله: (صوتي يجف في فمي... فالصوت لا يجف إنما ينقطع، والريق هو الذي يجف، وقوله (حي يصيح في دمي... فالحب هو شيء معنوي لا يمكنه الصباح، فقد أراد بهذا التركيب البحث عن الجديد وتجاوز الواقع الأليم، فهي صور تبرز مدى جرحه الكبير والحسرة التي بقيت بداخله مستعينا بالصراخ الداخلي وطلب العون لكن لا حياة لمن تنادي. أما في قصيدة "نجمة الغروب" في قوله:

يَا نَجْمَةَ الْغُرُوبِ

عَلَامَ تَحْزَنِينَ؟

تُورِقِينَ اللَّيْلَ بِالْأُنَيْنِ

وَتَبْعَتَيْنِ نَحْوَ كُلِّ قَلْبٍ عَاشِقٍ..

قَدِيفَةً مِنَ الْحَمَمِ

وَشُغْلَةً مِنَ الْأَلَمِ

عَلَامَ تَحْزَنِينَ؟⁵⁵

أراد الشاعر بهذه الأسطر أن يعبر عن حزنه وشوقه الشديد لوطنه، حيث رسمت لنا أنامله لوحات مشفرة تعكس لوعة الفراق والحنين مستعينا بمعجم الطبيعة، وهو في غربته رمز لوطنه بنجمة الغروب والتي عندما يراها يذكر آلام وأحزان وطنه البعيد بعدها عن ناظره، موظفا مفردات مثل) نجمة، غروب، تحزين، تورقين، الليل، الأنين، الحمم، الألم... وكلها توحى بالحزن والقلق والشوق، فالشاعر هاهنا أشرك الطبيعة في همه وبثها ألمه وشوقه يناجها عليها تستجيب له، فالشاعر الوجداني إذا اشتدت عليه وطأة الأحزان وأرهقه المجتمع يهرب إلى أحضان الطبيعة ويشاركها عواطفه وهمومه عله يستريح، حيث يقول:

أَلَسْتُ فَوْقَ الطَّيْنِ.. فَوْقَ الْعَالَمِينَ

وَالْحُزْنَ يَا خَابِيَةَ الشُّعَاعِ

لَا يَبْرِحُ التُّرَابِ

يَظَلُّ فِي ذَرَّاتِهِ سَامَةً.. مَرَارَةً.. عَذَابِ

عَلَامَ تَحْزَنِينَ؟

وَالْحُبُّ وَالْحَنِينِ

من طَبَعْنَا نَحْنُ الَّذِينَ نَشْتَبِي

لَأَتْنَا مِنْ طِينٍ

لَأَتْنَا لَا نَمْلِكُ الشُّعَاعَ

نَتُوِّقُ لِلضِّيَاءِ.. نَعْبُدُهُ⁵⁶

نلاحظ في هذه الأسطر مدى اندماج الشاعر مع الطبيعة في حديثه ومناجاته لنجمة الغروب ومقارنتها بالإنسان وأطماعه في الحياة، الذي يريد أن تسمو روحه فوق العالمين، وأن يتعد عن كل الأحران لكن هيمات، فهو مخلوق من طين لا يبرح التراب الذي كل ذراته سامة ومرارة وعذاب، فالشاعر الوجداني يبحث في إحساسه "عما يربطه بعالم الروح من أسباب، وعن تطلعه إلى حياة يخلص فيها من قيود الطين إلى مسابح النور. لذا يألف النور ومشتقاته ومرادفاته وما يتصل بمعانيه من ألفاظ محوِّراً هاماً تدور حوله الكثير من قصائد هؤلاء الشعراء وصورهم"⁵⁷ ومثال ذلك في هذه القصيدة (شعلة، الشعاع، الضياء..). توحى كلها بمعانير روحية ونفسية عديدة.

خاتمة:

وفي الأخير نستنتج بأن التجربة الوجدانية في الشعر الجزائري قوبلت بالرفض بادئ الأمر، من طرف الشعراء المحافظين و شعراء الإصلاح الذين كانوا متمسكين بالنظام الإحيائي ورافضين لكل ما يأتي من الغرب؛ لأنه لا يتلاءم مع الأعراف والتقاليد عندهم، وتمخض عن ذلك صراع بين النظامين، ولكن مع مرور الزمن وتغير الحياة والظروف السياسية والاجتماعية، وجدوا في التجديد والتغيير حاجة ماسة علمياً تنفذهم ممّا هم فيه، لأنهم وجدوا بأن الاتجاه التقليدي لم يعد يخدم الواقع ولم يعد يلبي الرغبات النفسية والروحية للشعراء والأدباء؛ لما فيه من تقييد للحريات، ولابد لهم من البحث عن قوالب شعرية جديدة تتلاءم مع الواقع الجديد الواقع المتمرد الراض لكل ماهو تقليدي كلاسيكي يتحكم في الذات المبدعة، دافعاً إياها إلى التحليق في عوالم الذات والخيال لتجاوز الواقع وكسر حواجز الصمت.

إذن فالشعر الوجداني الجزائري هو ثمرة التغييرات السياسية والاجتماعية التي حدثت آنذاك، ونتيجة لعملية التأثر والتأثير التي جرت بين الآداب الغربية والعربية عن طريق الاستعمار أو الترجمة أو الرحلات العلمية، وغيرها من العوامل التي أتاحت هذا التغيير.

يعد الشاعر أبو القاسم سعد الله من الشعراء الجزائريين الذين خاضوا تجارب شعرية وجدانية، حيث بدى تأثره واضحاً بالمدىب الرومانسي في قصائده، وذلك من خلال مضمونها الذي يحمل في طياته الكثير من الشكوى و الحزن والإحساس بالغربة، والشوق والحنين إلى الوطن، حيث عالج فيها تجارب إنسانية وقضايا وطنية منطلقاً من ذاته ومتأثراً بغيره، أما من ناحية البناء الفني للقصائد فقد وردت أغلبها في لغة سهلة واضحة لكنها ذات دلالات عميقة، متأثرة بمعطيات الواقع الحديث، أما الصور الشعرية فهي كثيرة ومعبرة عن نوازع النفس البشرية، ومتلائمة مع الأحاسيس والمشاعر، حيث

جسدت المعاني في صور رمزية متناسقة مع العواطف والخيال تشخص الواقع، وتتفق مع مراد الشاعر ومقصده.

الهوامش:

1. صالح خرفي: الشعر الجزائري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (د،ط)، 1984، الجزائر، ص290.
2. المرجع السابق، ص291.
3. شلتاغ عبود شراد: حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون الطباعية، (د،ط)، 1985، الجزائر، ص108.
4. محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975)، ط2، دار الغرب الإسلامي، 2006، بيروت، ص115.
5. أمينة بلهاشي: الرمز في الأدب الجزائري "رمز الحب والكراهية عند بعض الشعراء الجزائريين المحدثين"، رسالة ماجستير، إشراف د أحمد طالب، تخصص أدب جزائري حديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2011/2010، ص6.
6. محمد ناصر: المرجع السابق، ص93.
7. إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق لنشر والتوزيع، ط3، 2001، الأردن، ص135.
8. ينظر: عبد الله الركبي: دراسات في الشعر الجزائري الحديث، الدار القومية (ط،ن)، (د،ط)، (د،ت)، مصر، ص177.
9. شلتاغ عبود شراد: حركة الشعر الحر في الجزائر، ص108.
10. محمد ناصر: المرجع السابق، ص105.
11. شلتاغ عبود شراد: حركة الشعر الحر في الجزائر، ص64.
12. المرجع نفسه، ص108.
13. ينظر: أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، ط7، 2007، الجزائر، ص50-51.
14. ينظر: يوسف ناوري: الشعر الحديث في المغرب العربي، ج2، دار توبقال للنشر، ط1، 2006، المغرب، ص32.
15. شمسية غربي: الجانب الأدبي في كتابات أبي القاسم سعد الله، مقال، شبكة الألوكة الأدبية واللغوية، 2017.
16. ينظر: مريم خالدي: أبو القاسم سعد الله حياته وأعماله، رسالة دكتوراه، إشراف: إبراهيم لونيبي، تخصص الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي الياابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2018/2017، ص(13-39).
17. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج6، باب الواو، (د،ط)، (د،ت)، ص4770.
18. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج3، ط1، عالم الكتب، 2008، القاهرة، ص2403.
19. محمد التونسي: المعجم المفصل في الأدب، ج2، ط2، دار الكتب العلمية، 1999، بيروت، لبنان، ص880.
20. أبواب أحمد جعفر: الاتجاه الوجداني بين إبراهيم ناجي والتنجاني يوسف بشير، رسالة ماجستير، إشراف: محمد علي أحمد عمر، تخصص لغة عربية (أدب)، كلية الدراسات العليا، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، 2016، ص10.
21. عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، (د،ط)، مكتبة الشباب، 1988، مصر، ص11.
22. المرجع السابق، ص11.
23. ينظر: أبواب أحمد جعفر: المرجع السابق، ص33-34.
24. محمد غنيهي هلال: النقد الأدبي الحديث، (د،ط)، نهضة مصر (ط،ن،ت)، 1997، مصر، ص373.

25. عبد القادر القط: المرجع السابق، ص 14.
26. ينظر: محمد عناني: الأدب وفنونه، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، القاهرة، ص 65، 67.
27. فؤاد القرقوري: أهم مظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، الدار العربية للكتاب، (د.ط)، 1988، تونس، ص 122، 123.
28. زين العابدين بن زباني: الاتجاه الوجداني في الشعر الملحون الجزائري، ص 52، 51.
29. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، للمدارس الثانوية العليا، دار نهضة مصر (ط.ن)، (د.ط)، (د.ت)، القاهرة، ص 31.
30. محمد صايل وآخرون: قضايا النقد القديم، دار الأمل (ن.ت)، ط 1، الأردن، 1990، ص 29.
31. أنطونيوس بطرس: الأدب تعريفه، أنواعه، مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، (د.ط)، بيروت، 2005، ص 304.
32. أحمد أمين: النقد الأدبي، مؤسسة هنداوي للنشر، (د.ط)، مصر، 2012، ص 33.
33. محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، ص 67.
34. رمضان الصباغ: في نقد الشعر العربي المعاصر-دراسة جمالية- دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، ط 1، مصر، 2002، ص 269.
35. شمسية غربي: الجانب الأدبي في كتابات أبي القاسم سعد الله.
36. مريم خالدى: أبو القاسم سعد الله حياته وأعماله، ص 166.
37. محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين -الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه- البصائر الجديدة(ن.ت)، 2014، الجزائر، ص 347.
38. أبو القاسم سعد الله: دراسات في الشعر الجزائري، ص 132.
39. شلتاغ عبود شراد: المرجع السابق، ص 63.
40. محمد ناصر: المرجع السابق، ص 143.
41. عبد القادر القط: المرجع السابق، ص 282.
42. أبو القاسم سعد الله: إبداعات الزمن الأخضر ديوان سعد الله وسعفة خضراء قصص، دار الغرب الاسلامي، ط2، الجزائر، 2005، ص 195.
43. عبد القادر القط: المرجع السابق، ص 391.
44. المصدر نفسه، ص 196.
45. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
46. المصدر نفسه، ص 196.
47. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
48. المصدر السابق، ص 279.
49. رحمة مهدي: بناء القصيدة الوجدانية عند شعراء المدينة المنورة المعاصرين، رسالة دكتوراه، اشراف: صالح جمال بدوي، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا، جامعة القرى، المملكة العربية السعودية، 2005، ص 23.
50. المصدر نفسه، ص 339.
51. محمد ناصر: المرجع السابق، ص 341.
52. المصدر نفسه، ص 339.
53. محمد ناصر: المرجع السابق، ص 317، 318.
54. محمد ناصر: المرجع السابق، ص 326.

55. المصدر نفسه، ص 355.

56. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

57. عبد القادر القط: المرجع السابق، ص 354.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق لنشر والتوزيع، ط3، الأردن، 2001.
2. أحمد أمين: النقد الأدبي، مؤسسة هنداوي للنشر، (د، ط)، مصر، 2012.
3. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، للمدارس الثانوية العليا، دار نهضة مصر (ط، ن)، (د، ط)، القاهرة، (د، ت).
4. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج3، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2008.
5. أبو القاسم سعد الله: إبداعات الزمن الأخضر ديوان سعد الله وسعفة خضراء قصص، دار الغرب الإسلامي، ط2، الجزائر، 2005.
6. أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، ط7، الجزائر، 2007.
7. أمينة بلهاشي: الرمز في الأدب الجزائري "رمزا الحب والكراهية عند بعض الشعراء الجزائريين المحدثين"، رسالة ماجستير، إشراف د أحمد طالب، تخصص أدب جزائري حديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2010/2011.
8. أنطونيوس بطرس: الأدب تعريفه، أنواعه، مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، (د، ط)، بيروت، 2005.
9. أواب أحمد جعفر: الاتجاه الوجداني بين إبراهيم ناجي والتجاني يوسف بشير، رسالة ماجستير، إشراف: محمد علي أحمد عمر، تخصص لغة عربية (أدب)، كلية الدراسات العليا، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، 2016.
10. رحمة مهدي: بناء القصيدة الوجدانية عند شعراء المدينة المنورة المعاصرين، رسالة دكتوراه، إشراف: صالح جمال بدوي، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا، جامعة القرى، المملكة العربية السعودية، 2005.
11. رمضان الصباح: في نقد الشعر العربي المعاصر - دراسة جمالية - دار الوفاء لدينا للطباعة والنشر، ط1، مصر، 2002.
12. زين العابدين بن زياتي: الاتجاه الوجداني في الشعر الملحون الجزائري - دراسة تحليلية لنماذج من منطقة الشمال الغربي - رسالة دكتوراه، إشراف: شعيب مقنونيف، تخصص أدب شعبي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2015/2016.
13. شلتاغ عبود شراد: حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون للطباعة، (د، ط)، الجزائر، 1985.
14. شميصة غربي: الجانب الأدبي في كتابات أبي القاسم سعد الله، مقال، شبكة الألوكة الأدبية واللغوية، 2017، alukan.net، بتاريخ 2020/10/29، على الساعة: 21:33.
15. صالح خرفي: الشعر الجزائري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (د، ط)، الجزائر، 1984.
16. عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، (د، ط)، مكتبة الشباب، مصر، 1988.
17. عبد الله الركبي: دراسات في الشعر الجزائري الحديث، الدار القومية (ط، ن)، (د، ط)، (د، ت)، مصر.
18. فؤاد القرقوري: أهم مظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، الدار العربية للكتاب، (د، ط)، تونس، 1988.
19. محمد الأمين بلغيث: رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين - الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه - البصائر الجديدة (ن، ت)، الجزائر، 2014.
20. محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ج2، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999.
21. محمد صايل وآخرون: قضايا النقد القديم، دار الأمل (ن، ت)، ط1، الأردن، 1990.

22. محمد عناني: الأدب وفنونه، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990.
23. محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، نهضة مصر (ط، ن، ت)، (د.ط)، مصر، (د، ت).
24. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، (د.ط)، نهضة مصر (ط.ن.ت)، مصر، 1997.
25. محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975)، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.
26. مريم خالدي: أبو القاسم سعد الله حياته وأعماله، رسالة دكتوراه، إشراف: إبراهيم لونيبي، تخصص الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2018./2017.
27. ابن منظور: لسان العرب، مج6، باب الواو، (د، ط)، (د، ت).
28. يوسف ناوري: الشعر الحديث في المغرب العربي، ج2، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، 2006.